عـــالم !

للأستاذ علي الطنطاوي

« مهداة إلى روح المرحوم أستاذنا الرافعي »

حدثني بعض مشايخي عمّن رأى بعينه وسمع بأذنه . قال :

وقعت الصيحة في « حيّ الميدان » أجل أحياء دمشق وأكبرها ، صبيحة يوم من أيام سنة ١٨٣١ ، بأن إبراهيم باشا ، قادم لزيارة عالم الشام الشيخ سعيد الحلبي (١) في مسجده . وابراهيم باشا من قد علمت في بطشه وجبروته ، ومن يده إلى السيف أسرع من لسانه إلى القول وعينه إلى النظر ... ومن كان جبار سورية وفاتحها وسيدها ؛ فطار الفزع بألباب الميدانيين ، وهم فرسان دمشق وحماتها ، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، ماذا يصنعون ؟ إنهم يعلمون أن الشيخ لايقيم وزناً لأحد من أبناء الدنيا ، فلا يجل سلطاناً لسلطانه ، ولا يوقر غنياً لغناه ، ولا يقيس الناس بما على جسومهم من ثياب ، ولا بما في صناديقهم من مال ، ولا بما يبتزون من أموال الدولة (٢) ، ولكن يقيسهم بما في نفوسهم من فضائل ، وما في قلوبهم من إيمان ، وما في رؤوسهم من علم ؛ وإذا نظر الناس من خارج فرأوا الطبْل سميناً عظيما ، نظر هو من داخل فرآه خالياً حقيراً ...

وكانوا يخشون أن يسوء ذلك من شأنه الباشا ، ويودّون لو رجوا الباشا ، ولكن كيف يصلون إليه وهو في قصره ، حوله الحجاب والأعوان ، والجند بالسلاح ، ومن حوله الموت ألواناً وأشكالاً ، يحمي حماه ، ويحرس أبوابه ... ويتمنون لو رَجَـوا الشيخ ،ولكنّ الشيخ أعزّ من مائة ملك جبار ، تحميه هيبته، ويحرسه تقواه وتحف به الملائكة واضعة لهاأجنحتها ... (٣)

(١) كان عالم الشام قبل طبقة الشيخ محمود الحمزاوي والشيخ محمد الطنطاوي والشيخ بكر العطار وأصحابهم .

(٢) يعني الرواتب .

(٣) جاء في الأثر : إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضى بما يصنع .

ولم يكونوا يخافون أن ينال الشيخ بسوء ؛ فهذا شيء تُحيله عقولهم لما استقر فيها من إجلال الشيخ وإكباره . ولا تراه أبصارهم ، لأنهم يقضون عن آخرهم قبل أن تراه أبصارهم ، ولكنهم كانوا يخشون الشيخ على الباشا ، ويخشون الباشا على نفوسهم .

* * *

ومضوا يقيمون معالم الزينة ، ويبنون أقواس النصر ويرفعون الرايات على طريق البطل الفاتح . ويقطفون أزهى أزهار الغوطة لينثروها عليه ... فما كان الأصيل حتى تم كل شيء . وأقبل الباشا في الموكب الفخم ، والجند والسلاح والدّبدَبة ... حتى انتهى إلى باب المسجد وكان باباً صغيراً . فاعترض الباشا كأنه يقول له : إرجع أو أرجع دنياك ؛ إنك تدخل بيت الله بشراً خاضعاً ، أما أن تكون تزور إآلـه ... بألف عبد ، وألف ثوب فلا ! إنه لا يجتمع ميراث النبوة التي جاءت بالتوحيد والمساواة ، ببقايا الجاهلية التي قامت على الشرك والتمييز بين الناس إلا محى أحدهما ... فانظر هل محا باطل حقاً ؟

قال الراوي : وتردد الباشا هنيهة يفكر . ثم أبعد أعوانه وترجل ودخل المسجد منفرداً ، وكان الشيخ جالساً على حصير قد وضعت فوقه حشية ، وكان مادًّا رجله فسمعته يقول :

... والمرء إذا خاف الله ، وصدق في مخافته . خافه كل شيء ، لأنه لا يرى كبيراً إلا صغره عنده أن الله أكبر ... الله أكبر . إن لهذه سراً إلـهياً ، ولكن المسلمين استعجموا فهم لا يرددون منها إلا حروفها فارغة من المعنى ، وما فرض الله على المسلم أن يقولها كل يوم (٨٥) مرة أقل ما يقولها (١) ويسمعها من المنارة ثلاثين مرة ... (٢) إلا ليعلم أنه لا كبير في الدنيا وأن من كان مع الله لم يبال شيئاً : لا الملك ولا المرض ولا الوحش ، فلو أن المسلم عرف معنى هذه الكلمة وهو يقولها ما عرف الذل ولا الجبن ولا الكسل .

قال رجل من طرف الحلقة :

(١) إن صلى الصلوات المفروضة (١٧) ركعة كل يوم ، وذلك مالا يكون المسلم مسلماً إلا به .

(٢) في كل أذان ست مرات .

فإن قتله الملك يا سيدى الشيخ ، أو أماته المرض ؟

فقال الشيخ : سبحان الله ! وهل يهاب المسلم القتل ؟ و يبغض الموت ؟ إن الموت شديد لأنه انقطاع اللذات ، وخسران دنيا ، ولكنه لا يكون بهذا المعنى إلا عند الكافر الذى يعيش ى الدنيا ، ويستمتع بملاذها ؛ أما من كان يتهيأ فيها للعيشة الخالدة يقيم فيها كالمستعد للسفر ، ويرقب ساعته كما يرقب المسافر ساعة قطار ، ويراه حين يمضى ليلقى ربه ، كالآيب إلى وطنه حين هب ليلقى أهله وصحبه ... من كان هذا شأنه لا يرى فى الموت وتا ، وإنما يرى فيه ولادة جديدة ، وابتداء حياة ، وقد جاء ى الحديث : إن أفضل الشهداء رجل يقول كلمة حق عند إمام ائر فيقتله بها ...

وكان الباشا قد وقف على الحلقة متنفجاً ، مصعراً خدّه ، ماخاً بأنفه ، فنظر إليه الشيخ رحمه الله فلم يتغير ولم يبد ليه أنه رأى فيه أكثر من رجل ، وأشار إليه أن اجلس كما كان يفعل بغيره ، فلم يتمالك الباشا أن جلس ... ونظر في لحاضرين يقلب فيهم بصره ، يفتش عن شئ أضاعه فيهم ، عن لخضوع والإكبار اللذين تعوّد أن يراها حوله دائماً ، ينتظر أن وموا له ، وأن يقفوا بين يديه صفاً ، ولم يدر أن القوم كانوا في ر هذا ، لم يدر أن الشيخ قد علا بهم ، حتى جعلهم يطلون على نيا من شرفة طيارة ، أو من قطع السحاب ، فيرون الأرض كلها لفحص قطاة ، ولا يرون فى الباشا العظيم إلا نملة .. فمنذ الذى قل بنملة ...

وأجال الباشا نظره فيهم حتى علق برجل الشيخ ، وكانت دودة نحوه . فأثار مرآها كبرياءه وسلطانه ، ورأى فيها علامة عجب أضيفت إلى عظمته وجلاله ، إضافة سخرية وتهكم ؛ ورآها كبيرة في عينه ، فأحس كأنما هى في عينه ، ونظر في الحاضرين يجرد واحد منهم سيفه يتقرب إلى الباشا بقطّها .. ؟ وكان باشا ينظر بعين بصره المادية ، لم تفتح بعدُ عين بصيرته المعنوية لفاضل بين قصره وسريره ، ومكان الشيخ وحصيره ، وبين نده وأعوانه ، وتلاميذ الشيخ وإخوانه ، فيوقن أن دنيا الشيخ لمها لا تثبت لحظة لسيفه الذى لم تثبت له دنيا الخليفة العثمانى (امبراطور الشرق) ... وكان كالأسد الذى زعموا أنه مر على قبيلة من القنابل المدمرة ... ملقاة في أجمته ، فعجب منها وحقرها وقال : ويحك أى حيوان أنت ؟ يا للضعف والمهانة ! أين الأنياب ؟ أين المخالب ؟ أين .. أين .. يا للهوان ! ما ذا يصنع بأهله. قالوا : ثم ركلها برجله ، فانفجرت القنبلة ! وانفجرت القبيلة من فم الشيخ فرجع يتكلم

* * *

قال :

ومن عجيب صنع الله فى الانسان أن خلقه حيوانا كالحيوان ، ولكنه وضع فيه مَلَكا ووضع فيه شيطاناً ، فمن كان همّه من دنياه لذة بطنه وفرجه ، وابتغاها من حل ولم يعرف غيرها لم يكن فيه إلا الحيوان ، فهو يرتع كما يرتع الحمار ، ويتبع غريزته كما يتبع ؛ ومن كان همه اللذة من حل وحرمة ، ومن كان لا يبالى ما اجترح من السيئات ، لم يكن فيه إلا الشيطان ، وكان العقرب والحنفساء خيراً منه ، لأن مصيرهما إلى التراب ومصيره إلى النار . ومن كان همه أن يعيش فى هذه الحياة كما يعيش فى مدرسة يتلقى فيها أساليب الكمال ، ليعيش من بعدُ فى أساليب الكمال ، فهو الانسان حقاً . .

ومن عجيب صنع الله فى الانسان ، أنه وضع فى نفسه الملك ، فلا يحتاج مهما كان ضالاً فاسقاً ظالماً إلا إلى تنبيه الملك فى نفسه ، ليطرد الشيطان ، ويقود الحيوان ، فلست أنت الذى يعظه ، ولكنه يعظ حينئذ نفسه ، وهذا معنى قولهم :

لا تنتهي الأنفس عن غيها ما لم يكن منها لها زاجر

وذلك ثوابه الجنة ، والجنة لا تكون بالتشهى والأمل ، ولكن بالجد والعمل . ولو أن تلميذاً أمضى عامه فى لعبه ولهوه ، ثم تمنى النجاح ، أكان ينجح ؟ ولو أن صياداً ألقى بندقيته فلم يضرب بها ورمى شبكة فلم ينصبها ، ثم حلم بالقنيصة أكانت أحلامه تعدو فى أثر الغزال حتى تأتى به مكتوفاً ؟ أم كانت السمكة تأتيه وحدها وعلى ظهرها الملح والفلفل تقول له : كلني ؟ . .

قال رجل : ولكن القلوب قست يا سيدى الشيخ ، فما علاجها؟

قال : إن الشيطان لا يأتى إلا من إشعاره الكمال ، فأشعر نفسك النقص ، وذكرها فى الصحة المرض ، وفى الحياة الموت . ولقد أدركنا من مشايخنا من إذا قسا قلبه امّ المستشفى أو قصد المقبرة ، فخوف نفسه المرض وذكرها الموت . والمؤمن لا يزال بخير ما زال بين الخوف والرجاء ، فإن لم يخف أو لم يرج فقد هوى ... ولقد سمعنا ان منهم من كان يدنى يده من المصباح ويقول : يا نفس إن لم تصبرى على هذا فكيف ويحك تصبرين على نار جهنم ؟ وإن المؤمن ما ثارت فى نفسه شهوة ، إلا أطفأها بأنهار الجنة ، أو أحرقها بنار جهنم ، فاستراح منها . . .

وما الانسان لولا العقل ؟ وكيف يكون العقل إن لم يكن معه الايمان ؟ إنه لايكون إذن إلا كما قالوا : أوله نطفة مذرة ، وآخره جيفة قذرة . . . وللسلطان سكرة ، فمن أسكره سلطانه وعزته على الناس ، فليذكر هوانه على الله ، وأن الله أهلك أشد الملوك : النمرود ، بأضعف الخلق : البعوض

فيامن أصله من التراب ، لاتنس أن نهايتك إلى التراب !

* * *

وكان الباشا يشعر ، والشيخ يتكلم ، كأنه كان محبوساً فى صندوق ، ثم فتح عينيه فنشق الهواء الطلق ، أو كأنه كان فى ظلمة فاحمة ، فطلع الشيخ عليه شمساً نيرة ، فتضاءل حتى جلس على ركبتيه ، ورأى نفسه دون هؤلاء كلهم ، لأنهم ألصق منه بالشيخ وأدنى إليه ، ولم يعد يزعجه مرأى الشيخ وهو ماد رجله... بل كان يراه الغريق ويراها خشبة النجاة ، وكان يبصرها عالية بجناح النسر المحلق ، ثم لم يعد يري فيها شيئاً ، لقد استحال الشيخ فى نظره إلى فكرة ... لم يعد يري فيه إلا الحقيقة تمثلت إنساناً

* * *

قال الراوى : فلما ذهب الباشا ، بعث إلى الشيخ بكيس فيه الف دينار من الذهب العين ، فلما جاءه به الرسول وألقاه بين يديه تبسم الشيخ رحمه الله ورده إليه ، وقال له : سلم على سيدك وقل له : إن من يمد رجله لا يمد يده . . . . .

البصرة — على الطنطاوى

من أدب القوة

مثال ..!

للأستاذ عبد المنعم محمد خلاف

ثارت نفسه ثورة صارمة جامحة لِتَحَيُّف الغاصبين وطنه وتمزيقه شر ممزق ؛ فصرخ الدم فى عروقه ، ولصرخة الدم دوى يسمعه الأحرار فتصيبهم جِنّة تخرجهم من ديارهم إلى القبور... وتحرّك الإيمان فى قلبه ، ولحركة الإيمان زَلْزَلة تتحطم بها كل الشهوات ويستيقظ لها المؤمنون يقظة تخرجهم من قبور الغفلة إلى حومة الجهاد ... وأقبل الملك والشيطان يصطرعان على فكره وهو بينهما كما تكون كُدْسَة الحَبّ بين شِقّى الرحى . . . يدعوه الأول إلى خطة الأقل والأكثر فيها الفِداء فى الدار التى عريت من الخلود وازينت بالشر ، ويقول له : إنك ما كنت لتحيا هنا ، وإنما الحياة هناك . . . فاذبح مالك لحريتك ، واذبح شهوة الدعة فى الزلة لكرامة العزة ، واخرج من كل شيء لله الذى أعطاك كل شيء ...

إيتِـهِ جسداً عارياً من الحلى والزينة ، فإنها سلاسل تربطك بالأرض . . . وائتِـه نفساً عارية من كَلَب شهوةِ البقاء . . . وائته عقلا عاريا من صور البنين والملوك والذهب والفضة والمنصب ... فإن كل أولئك أقذاء وحجب تغشى العين فلا تبصر ذلك اللفظ الصارم الذى لا يرحم ، العابس الذى لا يبتسم : الواجب !

إيتِـه عبداً مملوكا طائعا ولك الكرامة قبل أن تؤخذ آبقاً كارها وعليك كلمة السوء ...

ويدعوه الثانى إلى خطة الأقل فيها السلامة . . . والأكثر فيها العيش الموفور المُعَطَّر المُدَثَّر المفضض . . . ويقول له : مالك مجنوناً بالفناء وقد خلقت للبقاء ؟ ! الناس قطعان حيوان ليس فيهم حرمة ولا لهم واجب فلماذا تموت ليحيوا . . ؟ أتموت أنت الشابّ الفُرانِقَ المُقْبِل ليحيا العجائز والشيوخ المدبرون . . ؟ لماذا تحمل وطنك بكل ما فيه على قلبك ؟ ألقِه عنك يتحطم وعش على أنقاضه . . . دع أوهام الأديان وأحلام الفلاسفة والشعراء . . . أنت «لا تأتى إلى دنياك هذى مرتين ؛